الأهرام

المصدر : الوفد

التاريخ : ٤ يولية ٢٠٠٠

رحيل حافظ الأسد مرة أخري الدولة ترتهن للعائلة فى الشام

من السهل، بل قد يكون من المغرى الحديث عن قدرات وإنجازات قائد مثل حافظ الأسد فى لحظات وداعه الأخيرة. ففي تاريخ الرجل، وفى صفاته الشخصية الكثير مما يمكن اعتباره غير عادى. تقفز هنا ثلاثة إنجازات مهمة. ينحدر الأسد من جذور اجتماعية واقتصادية متواضعة، وأمضي طفولته فى قرية نائية وفقيرة فى جبل العلويين فى سوريا. لكن انطلاقاً من ذلك ينتهي به الأمر إلى أن يصبح واحداً من قادة المنطقة التاريخيين الذين صاغوا قسماتها السياسية والاجتماعية خلال النصف الثانى من القرن العشرين. وهذا شيء وإن كان طبيعياً، إلا أنه غير عادي، والأسد هو أول قائد عربي، بعد معاوية بن أبي سفيان، ينجح فى عكس الدورة التاريخية للدولة والسلطة فى سوريا بطريقة تجعل منها قابلة أن تتحول إلى «جمهورية وراثية». هذا على الأقل ما يبدو - حتى الآن - من أن انتقال السلطة إلى الابن بشار لم يواجه بأية معارضة سواء من الحرس القديم أو الجديد. وهذا بدوره شيء غير عادى. وعلى المستوى المحلى كان الرئيس الأسد أول رئيس سوري منذ بدايات القرن العشرين يؤمن لسوريا استقراراً سياسياً يمتد ثلاثة عقود.

حقق الرئيس الأسد كل ذلك داخل بيئة الشام السياسية، وهي بيئة وعرة تتقاطع فيها قيم البداوة، والريف، وقيم المدينة والحضارة، وهى إلى جانب ذلك بيئة مسيسة حتى العظم ليس فقط نتيجة للتجربة الاستعمارية، وإنما أيضاً نتيجة لصراع، الحضارات، والأديان، والدول، والأيديولوجيات، والإمبراطوريات والأحزاب، والعشائر والعائلات على أرضها لقرون طويلة. وفى السنوات التي كان حافظ الأسد يبني فيها نظامه حجراً فوق حجر كان المجتمع السورى لايزال

يعكس مقولة الرئيس السوري السابق شكري القوتلي المشهورة من أنه مجتمع «نصفه من السلسة، وربعه من الزعماء والقادة، وربعه الآخر انبياء ورسل». وهى مقولة عبرت عن نفسها بصيغ مختلفة، وفى مناسبات عدة، من أبرزها ظاهرة الانقلابات العسكرية التى لم تتوقف حتى نوفمبر ١٩٧٠م، وحركة التمرد الإخواني التى انتهت بمأساة حماه فى ١٩٨٢م، ثم الصدام بين الرئيس الأسد وشقيقه رفعت الذي كاد أن ينتهى إلى حرب أهلية فى عام ١٩٨٣م.

وفى خضم كل ذلك وبعده كان الرئيس الأسد يخوض صراعاً مريراً مع إسرائيل على أكثر من جبهة، من أهمها جبهة لبنان، البوابة الخلفية لسوريا، الذي غرق فى حرب أهلية ابتداءً من ١٩٧٥م وحتي ١٩٩٠م. أثناء ذلك تعرض هذا البلد لاجتياح إسرائيلي فى ١٦٧٨م. اعقبه الاجتياح الثاني المدمر فى ١٩٨٢م، لكن بالرغم من ذلك، ومع تعقيدات التركيبة الطائفية للنظام اللبناني، وتقاطع التحالفات من الداخل والخارج فى هذه التركيبة، فقد نجح الأسد فى افشال التطلعات الإسرائيلية فى لبنان، وأكثر من ذلك فى بسط هيمنته على هذا البلد وربطه بالسياسة الإقليمية لسوريا، وفى نفس الإطار كان موقف الأسد التفاوضي يتسم بالتماسك، والصلابة، والبعد عن تقديم تنازلات مجانية، دأب على تقديمها كل الذين وقعوا اتفاقيات سلام مع إسرائيل. وهنا بحد ذاته يمثل إنجازاً مهماً فى هذه المرحلة لأنه يشكل سابقة تفاوضية ينتظر لها أن تكون ملزمة لخليفته فى الحكم.

هذه أهم وأبرز إنجازات الأسد. ومن حقه أن تبقى حية فى ذاكرة الأمة. لكن هذه الإنجازات حقائق تاريخية، والحقائق

خالد الدخيل
أستاذ الاجتماع بجامعة الملك سعود

عادة لا تتحدث عن نفسها، وإنما الطريقة التى يتم بها تقديم هذه الحقائق، والسياق الذي توضع فيه هو الذي يقرر طبيعتها ومدلولها التاريخي. والاسهاب فى تعداد هذه الإنجازات، وترديد مناقب الرئيس الراحل هو الأسلوب الذي سيطر على ساحة الحديث بعد وفاته، وبطريقة عكست سيطرة آلية العقل الجمعى على تفكير الكثيرين داخل سوريا ولبنان وخارجهما. وهذا أمر بشرى طبيعى فى مثل هذه المناسبة. لكن الأهم والأجدى هنا ليس الاسهاب فى تعداد إنجازات الرجل ومميزاته ومواهبه القيادية. فهذا أمر مفروغ منه. إن الأهم والأصعب فى مثل هذا الظرف هو محاولة فهم طبيعة إنجازات الرئيس الراحل ودلالتها ضمن سياقها السياسي والاجتماعى، ثم مردود هذه الإنجازات بالنسبة لسوريا أولاً، وبالنسبة للمنطقة بعد ذلك، والأهم أيضاً ليس أن نثمن فقط قدرات ومهارات الرئيس الراحل السياسية، وإنما لن ننظر إليها وإلى تأثيراتها ضمن النسق السياسي والتاريخي الذي ينتمى إليه هو بوصفه واحداً من القادة العرب.

ولعل الأصعب من هذه الناحية ملاحظة أن النسق التاريخى العربي يكشف أن الصفات الشخصية التى يتميز بها القائد العربي عن غيره، ومهاراته السياسية وقدراته العسكرية لا تتجاوز فى مترتباتها ومكتسباتها فى الغالب شخصية صاحبها ومحيطه العائلي أو العشائرى إلى الواقع الاجتماعى الأوسع الذي ينتمى إليه، وعلى ارضه يتحرك. وتتسع هذه المسافة بين صفات القائد الشخصية وبين واقعه الاجتماعى فى حالة الجانب المؤسساتى لذلك الواقع. فصفات رجل الدولة، وحس الدولة السياسى الذي عادة ما يتميز به القائد عن غيره لا ينعكس على المؤسسات السياسية والاقتصادية للدولة التى يقف هو على رأسها. على العكس هناك مسافة واضحة بين القائد وبين محيطه الاجتماعى والسياسي. من هنا لابد فى محاولتنا فهم وتقدير ليس فقط إنجازات الرئيس الراحل وإنما أيضاً الإرث الذي خلفه لسوريا، أن نستهدي بالسؤال الذي يقول: ما هو المضمون الاجتماعي والسياسى لإنجازات الأسد وما هى الآثار والمترتبات التى تركتها تلك الإنجازات، إلى جانب ما كان يتصف به من مميزات سياسية وقيادية على تركيبة المجتمع السوري، وحياة الشعب السورى، وتتعزز مشروعية هذا السؤال وأهميته عندما نعرف أن حكم الرئيس الراحل امتد لثلاثة عقود من الزمن.

فى البداية ينبغى التأكيد على أن المسافة بين شخصية الأسد المتميزة بالفعل وبين واقع سوريا لم توجد لأن الأسد أرادها أن تكون كذلك وحسب. وإنما فرضها النسق الذي تنتمي إليه تلك العلاقة بين الطرفين. حيث يمكن ملاحظة أن أهم إنجازات الرئيس الأسد إلى جانب تحقيق الاستقرار داخل سوريا، كانت فى مجال السياسة الخارجية. فقد استطاع أن يمنع لبنان من السقوط فى مجال النفوذ الإسرائيلي. ونجح فى إقامة شبكة من علاقات التحالف مع مجموعة من القوى الإقليمية تخدم تحقيق أهدافه السياسية المباشرة، وأبرز هذه القوي هي السعودية ومصر وإيران. واستطاع حتى وفاته - يرحمه الله - أن يصمد فى وجه الضغوط الدولية

والإقليمية لتقديم أى تنازل لإسرائيل قد يساعد فى تحقيق هيمنتها على المنطقة. هذه الإنجازات، وخاصة تحالفاته مع قوى كانت بعضها متناقضة سياسياً، تعكس رؤية سياسية ثاقبة وقدرة على التفكير الاستراتيجى، لكن مع ذلك يبقي سؤال مهم مانا كان الهدف الاستراتيجي الذي كان الأسد يعمل علي تحقيقه من وراء كل ذلك؟ كان يريد استعادة الجولان، وهذا حق شرعى، وكان مستميتاً للإبقاء على ورقة لبنان فى يده، وهذا حق مشروع أيضاً، لكن كل ذلك يبقي ضمن دائرة الأهداف التكتيكية والمرحلية، ما هو الهدف الأساسي، أو الاستراتيجى، من وراء كل ذلك؟ بعبارة أخري، مانا بعد استعادة الجولان؟ هل يتوقف الصراع مع إسرائيل؟ أم يتخذ صيغة مختلفة؟ وإذا كان الخيار الثاني هو الأرجح - وهو كذلك

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

ـ فماذا سيكون الهدف، أو الأهداف العربية داخل هذه الصيغة الجديدة للصراع؟ هذه هي الأسئلة التي ظلت غائبة فى حمى الصمود أحياناً، وحمى التفاوض أحياناً أخري، وللحقيقة فإن هذه الأسئلة غائبة لدي كل الأطراف العربية، وليس سوريا فقط.

فى هذا الإطار نجد أن إسرائيل في المقابل، سواء من خلال عملية السلام والتطبيع، أو من خلال آليات الاحتلال، ومن ثم تفعيل مبدأ «الأرض مقابل السلام» تعمل على تحقيق هدف استراتيجي واضح، وهو العمل بكل الوسائل المتاحة لدفع الأمور فى اتجاه إعادة صياغة التركيبة السياسية والثقافية للمنطقة بحيث تصبح قادرة على قبول إسرائيل ككيان طبيعى، قد تنجح فى ذلك وقد لا تنجح، لكن يبقى أنها تملك هدفاً تعمل على تحقيقه فى المدى الطويل، فى المقابل نجد أن الجانب العربى غارق فى تفاصيل الظروف السياسية للمفاوضات، وفى تذليل عقبات الأهداف الآنية لهذه المفاوضات، ودونما انتباه إلي ما هو أبعد من ذلك.

عندما نأتي إلى الإنجاز الأهم الذي حققه الرئيس الأسد وهو تأمين الاستقرار السياسي فى سوريا، نواجه السؤال نفسه: ثم ماذا؟ إن الاستقرار السياسي بطبيعته يمثل الإطار الذى لابد منه لتفعيل التنمية الاقتصادية، وتطوير الحياة السياسية ومؤسساتها بما يسمح بالتداول السلمى للسلطة، وبتحقيق الرفاهية والأمن والحرية للمواطن السورى. لكن أياً من ذلك لم يتحقق فى سوريا خلال العقود الماضية. على العكس من ذلك نجد أن الآلية الأساسية التى بواسطتها تم تحقيق الاستقرار السياسي كانت آلية عسكرية وأمنية، وليست آلية سياسية اقتصادية. والصورة التى رافقت الاستقرار فى الجانب الاقتصادى ليست مشرقة بأى شكل من الأشكال. فالبطالة في سوريا تصل إلى حوالى ٣٠٪ و ومتوسط دخل الفرد لا يتجاوز ٨٠٠ دولار أمريكى فى السنة، ونسبة من هم تحت خط الفقر من السكان تصل إلى ما يقرب من الـ١٥٪، والتضخم يصل إلى ١٥٪ هذا يعنى أن تضاعف عدد السكان خلال العقود الثلاثة الماضية «الآن ١٧ مليوناً» لم يواكبه نمو اقتصادي. إلى جانب ذلك هناك جمود التشريعات فى مجال الاستثمار، ومجال قوانين العملة، وجمود النمو التكنولوجي بحيث تعتبر سوريا الآن واحدة من أكثر البلدان العربية تخلفاً فى هذا المجال. كل ذلك يشير إلى أن شيئاً كثيراً لم يتغير في البيئة السياسية والاقتصادية السورية التى كانت موجودة قبل تسلم الرئيس الأسد لمسئولية الحكم.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية